مقدمة

خلق الله البشر و الاختلاف قاعدة أساس بينهم : ﴿ **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ (هود 11/ 118) ، و بعد الطفرة العلمية التي حققها المسلمون بعد ظهور الإسلام ، كان من الطبيعي جدا أن يظهر الاختلاف العلمي و المنهجي ، بالرغم من أن الهدف كان واحدا ، و هو خدمة القرآن وعلومه .

وتظهرفي اللغة العربية عدة قضايا تظهر في صورة صرفية عند العلماء التقليديين أفي حين يدرجها الدرس اللغوي الحديث في مجال الأصوات أ لذا تختار هذه الدراسة مجموعة من القضايا اللغوية تؤثر فيها الأصوات على البنية الصرفية أ هذه القضايا يغلب عليها طابع الخلاف بين العلماء ، خلافات قديمة تعيد نفسها مرة أخرى بين أيدي المعاصرين .

ونحاول في هذا الكتاب إيجاد رؤى جديدة لتلك الخلافات ما بين آراء العلماء المعاصرين ، ومعطيات المنهج المقارن مع أخوات اللغة العربية من اللغات السامية أ لذا قسمنا الدراسة على بابين : الأول يختص بقضية التأليف الصرفي عند واحد من علمائنا القدامى الذين أثاروا الجدل بين القدامى وهو ابن دريد الأزدي أ وناقشت الدراسة جهود ابن دريد حول القضايا الصوتية ذات الأثر في البنية العربية ، حتى نصل من خلال ذلك إلى التعرف على حقيقة شخصية ابن دريد العلمية ومدى صدق ما أثير حوله من جدل واتهامات .

وتكمن الإشكالية حول اتهام ابن دريد بسرقة محتوى كتاب العين تحت عنوان آخر هو " جمهرة اللغة" ، وقد تأكد لنا بعد هذا عن الصواب إطلاقا ؛ حيث كانت لابن دريد شخصية علمية مستقلة آثر من خلالها التجديد فى الآراء الصوتية عن جميع من سبقوه خاصة الخليل .

ويناقش الباب الثاني عددا من قضايا تأثير الأصوات في الصرف العربي ، وفي نفس الوقت هي قضايا خلافية عالقة تحتاج إلى إعادة قراءة من منظور المنهج المقارن لإيجاد حلول أو رؤى جديدة تحل الخلاف بطريق جديد . والمقارنة بين اللعربية واللغات السامية طريق جيد وفعال في هذا الشأن غفل عنه

الأقدمون ؛ ولهذا السبب يرجع كثير من الخلافات اللغوية بين العلماء القدامى و التي لم يصلوا فيها إلى قول فصل فيما بينهم ، بل تمسك كل برأيه حسب منهجه الذي يسير عليه من اعتماد على السماع ، أو اعتماد على القياس أو المنطق العقلي أحيانا ، الأمر الذي يدعونا اليوم إلى مزيد من البحث في مجال علم اللغة المقارن ، لحل كثير من الخلافات اللغوية العالقة إلى الآن .

يدعونا إلى ذلك تلك القرابة اللغوية بين العربية و أخواتها (الساميات) ؛ حيث يؤكد كثير من الدارسين المعاصرين أن ما يسمى اصطلاحا باللغات السامية إنما هي لغة أصلية واحدة لشعب واحد ، تفرعت إلى عدة لهجات مع تفرق الناس وتباعدهم في المكان والزمان ، وتكوينهم مجتمعات جديدة صارت لها سمات مميزة ، وحياة خاصة بها ، حتى إذا اعتمل الدهر فيها صارت لها ألسن مستقلة . ويؤكد المنصفون من علماء الساميات أن اللغة الأصل لتلك اللغات كانت هي اللغة العربية ، خرجت مع أصحابها من جزيرة العرب في موجات متتابعة من الهجرات إلى حيث الكلأ والعشب والماء شمالا أو جنوبا .

ومن هذه القضايا الصوتية الصرفية: قيم الصوت الصرفية والدلالية -- اسم الفعل و علاقته بالأصوات – الهمزة حرف علة – من الصيغ الخلافية المهموزة – في الإبدال اللغوي – الأصل الواوي واليائي – إعلال الفعل الناقص – إعلال نقل الحركة – القلب المكاني . ونأمل أن تقدم هذه الدراسة حلولا مرضية بطريقة غير مسبوقة لهذه القضايا العالقة .

د/ السيد محمد منازع علي

obeikandl.com

تمهيد

يعد باب التأليف الصرفي نموذجاً رائعاً يوضح تميز ابن دريد في الحديث عن علاقة الأصوات صفاتها ومخارجها بالتأليف الصرفى ، وجاءت جهود ابن دريد في هذا المجال تكشف عن إيمانه بدور مبدأ الجهد الأقل في تحديد النماذج اللغوية ، كما جاءت معظم جهوده متسقة مع الدراسات الإحصائية الحديثة الخاصة بهذا المجال .

وتعرض الدراسة لعدد من المفاضلات بين الأصوات العربية كما أتى بها ابن دريد ، هذه المفاضلات تنحصر حول أخف الحروف وألينها ، في مقابل أصعب الحروف وأقواها ، كذلك أكثر الحروف وأقلها في الاستعمال . وبلغ من جودة هذا الباب أن نقل السيوطى ما توالى منه في الجمهرة برمته في كتابه " المزهر " [1] .

وقد أثارت هذه المفاضلات جدلا واسعا بين أوساط المعاصرين بين المؤيدين لها والرافضين . ولما ارتبطت المفاهيم السابقة مجتمعة بمسألة تفضيل صوت على صوت نظراً لطبيعته الخاصة يرى بعض العلماء أن "مسألة التفضيل بين الأصوات مسألة مشكوك فيها ، ولا يأخذ بها العلم الحديث " [2].

وقد يرجع ذلك إلي أن " الأصوات الإنسانية لا تكاد تخضع لنظام عقلي منطقي في تكونها ، وصدورها والنطق بها ، كما أن ذلك الفرع من البحوث اللغوية الذي يسميه الأوربيون Phonetics لا يكاد يمت للمنطق العام بصلة " [3] .

ولعل ما جعل القدماء يفاضلون بين الأصوات بالإضافة إلي ما ذكره د . كمال بشر من نظرية الأصول [4] ، هو قول بعض القدماء بدلالة الصوت المفرد ، فعلى سبيل المثال " كلمة (تنضخ) كما يحدثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل في قوة وعنف ، وإذا قورنت بنظيرتها

(1) المزهر في علوم اللغة للسيوطي 194/1 وما بعدها .
(2) علم اللغة العام : القسم الثاني الأصوات د . كمال بشر 96 .
(3) من أسرار اللغة د . إبراهيم أنيس 140 .
(4) علم اللغة العام : الأصوات 96 .

(تنضح) التي تدل على تسرب السائل في تؤدة و بطء ، لتبين لنا أن صوت الخاء في الأولى له دخل في دلالتها ، فقد أكسبها في رأى أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنف "[1] .

وهذا التميز الدلالي بين الأصوات يرفضه كثيرمن المعاصرين حيث " لا توجد في اللغة أصوات لغوية منعزلة ... فلا يتكلم إلا بمركبات من الأصوات اللغوية "[2]. وذلك ما رآه كثير منهم حيث إن التحليل العلمي للغة قد أثبت أن " الفونيم وهو أصغر وحدة لغوية ليس له معنى في ذاته ولكنه مع غيره من الفونيمات يشترك في تحديد المعنى الإصطلاحى لكلمة ما " [3] .

وبالرغم مما سبق فإننا لا نجد مانعا من القول بصعوبة أصوات معينه وسهولة أخرى ، أو المفاضلة بصفة عامة على أساس الصفات الذاتية في الصوت نفسه ، والتي تفرقه عن غيره من الأصوات ، وهى اختلافات لا يستطيع أحد إنكارها ، لذلك نجد معظم الصوتيين المعاصرين يوافقون على المفاضلة بين الأصوات انطلاقا من أن " بعض الأصوات ... يلزم لنطقها نفس أكثر مما يلزم للأخرى أو يتطلب مجهوداً أعظم من حركات الأعضاء الصوتية " [4] .

ولقد كان ابن دريد على طريق مستقيمة حينما فرق بين الأصوات وحينما ذكر مصطلحاته " أصعب أخف وأقوي وألين ، وأقل أو أكثر استعمالا " حيث وجد علماء الأصوات أن " مقارنة الظاهرة الصوتية عند بحثها بظاهرة صوتية قريبة منها من أكثر الوسائل إعانة على فهمها " [5] .

ولذلك يقول فندريس : " عسر النطق كعكسه وهو اليسر من المسائل النسبية المحضة التي يحسها المتكلم بوضوح على ما يبدو ، ولكنها تختلف في كل لغة عنها في الأخرى ، ولا يمكن تقويمها دون معرفة اللغة معرفة دقيقة " [6] .

---

(1) دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس 42 .
(2) اللغة لفندريس 83 .
(3) التفكير الصوتى عند الخليل د . حلمى خليل 97 .
(4) اللغة لفندريس 63 .
(5) التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية د . سليمان حسن العانى 71 .
(6) اللغة لفندريس 63 .

وتتعرض الدراسة أيضا لبعض قضايا الأصوات المرتبطة بالفصاحة والمعرب والمهمل عند ابن دريد ؛ حيث نسب بعض منها إلى علماء البلاغة ، ومن عظيم الإجحاف أن ننسى فضل ابن وريد وما قدمه فى هذا المجال ، وليس من المبالغة أن نذكر أن كل قضايا الفصاحة والتعريب قد طرق أبوابها ابن دريد ، وقد نسى فضله أو تنوسى ، فعندما يذكر ابن جنى ينسى الآخرون ! .

ولقد وقع فى هذا المأزق معظم القدماء والمعاصرين عندما تحدثوا عن قضايا الفصاحة والتعريب وينسبونها لعلماء كثيرين دون ابن دريد ! . وقد يكون لهؤلاء العذر فى ذلك لأن ابن دريد كان يشير لتلك الموضوعات إشارات متفرقة هنا وهناك ولم يدرجها تحت عنوان واحد أو يدرسها بطريقة علمية منظمة ، فكان علينا أن نبحث فيما بين السطور حتى يجمع شتات تلك الآراء ويرتبها .

ومن هذه الأقوال التى تتجاهل فضل ابن دريد فى هذا المجال : " استفاد من الدراسات الصوتية علماء البلاغة والنقد وخاصة فيما سموه فصاحة اللفظ المفرد ، وكل ما قالوه فى هذا راجع إلى ما قاله الخليل وابن جنى "[1]!!

ولقد ارتبط البحث البلاغى فعلاً بعلم الأصوات حيث نرى " العلاقة وثيقة جداً بين علمى البلاغة والأصوات فى الدراسات الصوتية الحديثة ..... وقد عرض علماء البلاغة قديماً لكثير من الملامح الصوتية عند مناقشتهم لقضية الفصاحة ، وشروطها ولا سيما ما يتعلق منها يتنافى الأصوات وتآلفها إذ عرضوا لمخارج الحروف وصفاتها لاعتماد قضيتهم على كثير من تلك الأسس المنطقية التى تعد من المباحث الفوناتيكية فى الدراسات الصوتية "[2].

ولا ننكر أن ابن دريد قد سُبق إلى تلك الدراسات بكل من الخليل (175 هـ) والجاحظ (255 هـ) فى إشارات واضحة عما يأتلف من الحروف وما لا يأتلف منها ، ثم جاء ابن دريد ليقدم لنا ملاحظات عظيمة الفائدة ويأتى بعده ابن جنى (392 هـ) متأثراً بجميع أقواله الخاصة بهذا المجال دون

(1) مقدمة سر صناعة الإعراب 15/1.
(2) المقطع الصوتى فى ضوء تراثنا اللغوى د. عبد المنعم عبد الله محمد 22،56 .

أن ينسب أى شيءٍ منها لابن دريد ، فى حين كان ابن دريد صاحب أمانة علمية حيث نجده يذكر أسماء من روى عنهم.

ومن علماء البلاغة الذين أشاروا إلى تلك القضايا من اللاحقين لابن دريد على بن عيسى الرمانى (ت 386 هـ) فى كتابه " النكت فى إعجاز القرآن العظيم " وابن سنان الخفاجى (ت 466 هـ) فى كتابه " سر الفصاحة " ، كذلك لا ننسى ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) والقزوينى (ت 739 هـ) فى كتابه " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " ، وكان آخر القدماء إشارة إلى تلك الموضوعات جلال الدين السيوطى (911 هـ) فى " المزهر فى علوم اللغة وأنواعها " حيث جمع فيه أقوال المتقدمين .

ومن يطالع تلك المصنفات يدرك أن " المصنفات البلاغية لعبت دوراً فى حفظ تراثنا الصوتى واحتلت موقعاً واضح المعالم بين مصادر الدراسة الصوتية " [1] لذلك كان حقاً أن يقال: " إن الكثير من مباحث الفصاحة تدخل فى صميم الدراسات الصوتية " [2].

والفضل الذى تميز به هؤلاء اللاحقون على ابن دريد هو أنهم درسوا قضية الفصاحة دراسة منظمة هادفة ، ونجد مثالاً واضح المعالم لذلك وهو ابن سنان الخفاجى (ت 466 هـ) فى كتابه (سر الفصاحة) " وهو التلميذ الحقيقى لابن جنى لأنه جاراه فى سر الصناعة فأخذ كلامه بنصه وحرفه ، وخرّج به كلام الفلاسفة فى الأصوات وبنى عليه كتابه كله ، وذكر فى المقدمة ما يشترط فى اللفظ المفرد من صفات ليكون فصيحاً ، وهو أجمع كلام ذكر فى معنى الفصاحة وإن لم يسلم له كله "[3].

و تعالج الدراسة أيضا بعضا من قضايا الخلاف الصرفي التي تنشأ بتأثير صوتي في البنية أهذه المعالجات تعتمد على الدراسة المقارنة باللغات السامية أخوات العربية أنستعين بذلك في كشف غموض بعض الظواهر اللغوية الخلافية عند علمائنا القدامى ، وقد تجلت هذه الفائدة بالفعل مع العديد من الدراسات التي قدمها المستشرقون في هذا الشأن ، واستثمرها الباحثون في حل قضايا عديدة ظلت

(1) المقطع الصوتي فى ضوء تراثنا اللغوى 22 .
(2) علم الفصاحة العربية د.محمد على رزق الخفاجى 183 .
(3) مقدمة سر الصناعة 17/1 .

قرونا طويلة محل جدل وخلاف . كان السر في هذا الخلاف أنهم عالجوا العديد من القضايا اللغوية دون إدراك لأصلها السامي ؛ فوقعوا في جدليات تحتاج إلى مراجعات دقيقة من الساميات المقارنة .

واللغات السامية كثيرة للغاية إذا ما وضعنا في الاعتبار الميتة أو المنقرضة منها ، وكلها كذلك عدا العربية والعبرية الحديثة والأمهرية ، وبعض اللهجات السريانية أو الآرامية في الشام والعراق وتركيا . وقليل من الناطقين للهجات سامية خاصة في مجتمعات ضيقة ، وتوشك أن تزول تلك اللهجات ؛ فقد غلبت العربية معظم تلك الألسن.

أما اللغات القديمة فكثيرة جدا منها الشمالية مثل : البابلية والآرامية والعمورية والنبطية واللحيانية والأوجاريتية والمندعية والأكادية والفينيقية والكنعانية والأشورية والسومرية والتدمرية والصفوية .. الخ . ومنها الجنوبية مثل : السبئية والمعينية والقتبانية والحميرية .. الخ . وقد حصر موسكاتي وأصحابه في نهاية كتابهم (مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن)أكثر من خمسين لغة سامية[1].

لذا حرص الدارسون في هذا المجال على تقسيم تلك اللغات أقساما محددة ؛ حيث تنقسم هذه المجموعة من اللغات إلى ثلاثة أصناف من المواد الدراسية :

1- لغات مندثرة لا نعرف إلا ألفاظا أو عبارات منها كالكنعانية القديمة وغيرها .

2- لغات لدينا منها نصوص مكتوبة إلا أننا لا نجد متكلما بها الآن كالأكادية والسبئية .

3- لغات حية ما زالت تعيش على ألسنة المتحدثين بها كالعربية والحبشية والسريانية والعبرية الحديثة [2].

ورغم ما يسوقه بعض الدارسين من محاذير ، مثل أن اللغات السامية الحديثة لغات ملوثة ، أو ضحالة مادة النقوش السامية الجنوبية أو الشمالية ، أو غياب رموز العلل عن أبجديات النقوش القديمة

(1) - مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ، سباتينيو موسكاتي وآخرون 309 – 310 .
(2) - انظر : مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، هاشم الطعان 7 .

obeikandi.com

، غير أن ذلك لا يمنع من الاستعانة بها مـواد فعالـة في المقارنـات اللغويـة ، خاصـة مـا ورد في الكتـب المقدسة والنصوص القديمة ، أيضا بعد أن زادت أعداد النقوش اللغوية الجزرية المكتشـفة حـديثا حتـى وصلت إلى آلاف النقوش ، تمت قراءتها وتحليلها وتنتظر من المتخصصين قـراء لغويـة دقيقـة ستضـيف بصورة مؤكدة إلى الدرس اللغوي العربي .

ويطفو على سطح الدراسات السامية المقارنة عدد من اللغات يكثر الاستشهاد بها ؛ لوفرة المادة اللغوية المطلوبة ، فمن اللغات الأكثر استخداما (حيـة أو منقرضـة) عنـد علـماء الدراسـات المقارنـة : العربية الفصحى – الحبشية أو الأمهرية – العبريـة الحديثـة ويقابلهـا لغـة العهـد القـديم – الآراميـة – السريانية ، يليها الأكادية (البابلية – الأشورية) ، والأوغاريتية والتدمرية .

ولا يمنعنا في هذا المقام أن ننظر في جيران اللغات السامية من الحاميات ، نظرا للقرابة الشديدة والتأثير والتأثر . ومن هذه اللغات المصرية القديمة ويؤكد عدد كبـير مـن البـاحثين صـلة القرابـة بـين اللغـات السـامية والمصرـية القديمـة ، يشـير رايـت إلى أن العـالم (sub judice) الـذي أكـد أن الساميات تعد واحدة من عائلة كبيرة تشمل المصرية القديمة وبعـض لغـات إفريقيـا الأخـرى ، وأيـده كثيرون منهم : pott , renan[1].

كما أكد رينان ذلك مستشهدا برأي أرنسـت مـاير Ernest Mier وبـول بوتيشر Paul Boetticher[2] ودعا كـارل بـروكلمان إلى ضرورة الاسـتفادة مـن معطياتهـا في الدراسـة المقارنـة للغات السامية ، وتابعه أوليري أيضا [3].

---

(1) - انظر :

W.Wright: Lectures . 33 .

2- انظر : E.Renan : Histoire generale et systeme compare . 82

3 - انظر :

O'Leary: Comparative grammar of the Semitic languages .5

C. Brockelmann : Precis de linguistique semitique . 1167

كما أشار واليس في معجمه إلى هذه الحقيقة أيضا معددا آراء العلماء: بيرخ Birch ، وبروخ Brugsch وايبرس Ebers وروج Rouge، مؤكدا أنهم جميعا كانوا علماء مصريات[1].

ونبه ولفنسون إلى الصلة بين ألفاظ من اللغات السامية وألفاظ من اللغات الحامية كالمصرية القديمة [2] . وأكد كل من لويس عوض وأنطون ذكري وعلي عبد الواحد وافي هذه القرابة [3] .

[1] - انظر :
E.A.Wallis: An Egyptian Hieroo-lyphic dictionary : ixv , ixvi , ixvii

[2] - انظر : تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفنسون 18

[3] - انظر : مقدمة في فقه اللغة العربية ، لويس عوض 59 ، مفتاح اللغة المصرية القديمة أنطون ذكري 32 ، فقه اللغة ، على عبد الواحد وافي 19 .

obeikandl.com